الشخصية الثورية بين الطفولة و البطولة
في مسرحية "أم الشهداء" لعز الدين جلاوجي

✍ د/عبد الله بوقصة
المركز الجامعي أحمد زبانا/غليزان

مقدمة

يعدّ المسرح أبا الفنون، فهو رسالة إنسانية ضاربة في جذور التاريخ، وقد كان بمثابة الشعلة التي تضيء دروب الفن والأدب قبل الإذاعة والتلفزيون والسنيما وغيرها. وعلى الرغم من التطور الإعلامي الملحوظ الذي شهدته البشرية في وقتنا الراهن، يظلّ المسرح صامدا ملتزما معبّرا عن قضايا المجتمع العميق، مصوّرا للواقع المعيش.

وقد اختار المسرح الجزائري منذ إرهاصاته الأولى طرق القضايا الشعبية. فعالج موضوعات عدّة منها السياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها. فتناول موضوعتي: الطفولة والثورة في مشاهد تراجيدية مفعمة بالآلام والآمال. ومن الكتّاب المسرحيين الذين تصدوا لهاتين الموضوعتين: عبد الحليم رايس في رائعته "أبناء القصبة"، وكاتب ياسين في نصه "الجثّة المطوّقة"، وأبو العيد دودو في مسرحيتيه "البشير" و"التراب"، وكذا عبد الله الركيبي في مسرحية "مصرع الطغاة".

وهكذا تمّ تجسيد البطل وهو الشخصية المركزية التي تدور أحداث المسرحية حولها. أمّا البطل الثوري فهو ذلك الذي ينشد الحرية ويذود عن الوطن. ويحلّ الكاتب الجزائري عز الدين جلاوجي في طليعة الذين وظفوا البطل الثوري في نصوص مسرحية عديدة. تناول في معظمها موضوعتي الطفل والثورة كما في مجموعة مسردياته "أحلام الغول الكبير".[1]

وقد شهدت مسرحيته "أم الشهداء"[2] حضورا مكثّفا لشخصية الطفل الثائر بوصفه بطلا، وكذا نضاله المستميت لإبراز الهوية الوطنية.

وهكذا تعدّ المسرحية الجزائرية من أبرز الأجناس الأدبية التي تبنت الثورة. بما تحوزه من آليات التعبير وأدوات التأثير ووسائل التواصل.

فكيف أسهم الطفل الجزائري في الثورة التحريرية الجزائرية؟
وهل قدّم المسرح الجزائري ثورة الطفولة؟

وما مدى حضور الطفل الثائر في مسرحية "أم الشهداء" لعز الدين جلاوجي؟
وما هي سماته؟
وتصنّف مسرحية "أم الشهداء" لعز الدين جلاوجي بمثابة قطعة ثورية معبّرة عن تاريخنا المجيد، بشخصياتها وأماكنها وأحداثها الدائرة في فلك الثورة الجزائرية المباركة..

المسرح الجزائري و ثورة التحرير

بعد اندلاع ثورة التحرير الجزائرية المظفّرة، راح المستدمرّ يضيّق الخناق على النشاط المسرحي الجزائري ممّا أدى إلى هجرة فئة من رواده، وتوقّف أخرى عن تقديم عروضها. وفي ظلّ هذه الظروف، وُلدت الفرقة الفنية لجبهة التحرير الوطني عام 1957م

لا غرابة في أن المسرح الجزائري قد واكب الثورة التحريرية منذ نشوبها تأليفا وعرضا، ومن المسرحيات التي تبرز صدى ثورة الفاتح من نوفمبر، وتستلهم وقائعها، وتحاول تشخيص بطولاتها يمكن أن نشير إلى المسرحيات الآتية:

1- مسرحية "الجثة المطوقة"[3] (le cadavre encerclé) لكاتب ياسين إذ نشرها أول مرة في مجلة فرنسية تُدعى (أسبري esprit) في عددي ديسمبر 1954 وجانفي 1955 كما عرضها مسرح موليير في بروكسل يومي 25 و 26 نوفمبر 1958 ثمّ بباريس في أفريل 1959 و قد مثّلتها بتمكن فرقة (جان ماري سيرو jean mari serrou) هذا الفنان الذي لعب دور "لخضر"، وفي هذه المسرحية التي تصنّف ضمن بواكير المسرح الثوري الجزائري، نجد كاتب ياسين "يكشف أمام الرأي العام العالمي حقيقة مأساة الجزائر، وقد تغنّى بالثورة و الجزائر، ووصف حرب الإبادة التي شنتها فرنسا، كما عبّر عن آلام وآمال الشعب بقوة لم يستطع أحد قبله أن يعبّر بها.[4]

2- مسرحية: "الباب الأخير" لمصطفى الأشرف وهي "أول نص مسرحي جزائري نشر بتونس عن الثورة الجزائرية، صدر بمجلة الفكر خلال شهر جويلية 1957...وهو نص كتب ابتداء باللغة الفرنسية، وبعثه مؤلّفه عن طريق البريد إلى هذه المجلة من سجن (لاسانتي) بباريس حيث كان معتقلا مع زمرة من زعماء الثورة الجزائرية... وقد ترجمها طاقم المجلة قبل نشرها".[5]

ويعلّق "أبو القاسم سعد الله" على هذه المسرحية قائلا: "هي مسرحية تحمل معالم جديدة للواقع المعيش وللكفاح المسلّح على حدّ سواء، إنّها تصوّر الشعب الجزائري وقد نفض عنه

غبار الحيرة، وراح يتحسّس طريقه الشاق الذي يؤمن بأنّ اجتيازه لن يكون سهلا، والمسرحية تنبئ الرأي العام عن بداية المعركة الفاصلة".[6]

ولأهمية هذا النص المسرحي انبرى الطلبة الجزائريون المنتسبون إلى جامع الزيتونة أنذاك إلى تأسيس فرقة مسرحية، وهبّوا إلى تمثيله بإشراف صالح خرفي. [7]

3-مسرحية "حنين إلى الجبل" لصالح خرفي[8]، وهي مسرحية ثورية بامتياز، تصوّر في فصولها الأربعة، بأسلوب أدبي راق، ولغة شاعرية جذّابة تضحيات وبطولات الشعب الجزائري إبّان الثورة التحريرية. وقد كتبت هذه المسرحية سنة 1957، ومثّلت ضمن النشاط المسرحي للطلبة الجزائريين بتونس بإشراف مؤلفها ذاته.

4- مسرحية "مصرع الطغاة" لعبد الله الركيبي،[9] وهي مسرحية صدرت سنة 1959، وفيها يسترجع الكاتب شريط ذكرى فجر الثورة التحريرية، إذ تصوّر في أربعة فصول، اللقاءات السرية لقادة الثورة، وتنقل صورة عن الوضع السياسي والاجتماعي السائد في الجزائر عشية انطلاق الثورة المباركة، فتبرز يأس الشعب من العمل السياسي بسبب تشتت الرؤى وتباين وجهات النظر ومن ثمّ استعداد جلّ الشعب لخوض الكفاح المسلّح، وتقدّم المسرحية مشاهد انطلاق الثورة، وتصوّر ذعر الاستعمار، وبشاعة انتقامه، لتختتم المسرحية بمشهد مصرع طغاة الاحتلال وتحرير البلاد والعباد من براثنه.

5-مسرحيات الفرقة الفنية لجبهة التحرير الوطني: وهي الفرقة التي تأسست في مارس 1958 في المنفى بتونس بقيادة مصطفى كاتب وكانت تضم خمسة وثلاثين عضوا موزّعين على قسمين: قسم لفن المسرح وآخر لفن الغناء، وتمخّض عن النشاط المسرحي لهذه الفرقة تقديم أربعة مسرحيات مهمة هي على الترتيب:

أ- مسرحية: "نحو النور" أنتجت في ماي 1958 وهي من تأليف وإخراج مصطفى كاتب، والعرض "عبارة عن لوحات من كفاحنا الخالد، تبدأ القصّة بمنظر شاب جزائري ألقي عليه القبض ثمّ زجّ به في السجن بعد تعذيبه والتنكيل به. فيغمض عينيه ويجول بخاطره في ذكريات حياته من خلال مشاهد قصيرة منسجمة، وعروض حيوية متماسكة، تتطلّع إلى مستقبل متحرّر زاهر.

ب-مسرحية "أبناء القصبة"[10] من تأليف عبد الحليم رايس، وإخراج مصطفى كاتب. تمّ عرضها عام 1959م، وجسّدت انصهار كلّ فئات الشعب الجزائري في بوتقة الثورة التحريرية. وقد صوّرت التضحيات البطولية التي بذلها أبناء الجزائر، من خلال عائلة جزائرية ثورية

بامتياز، إذ أسهم كلّ فرد من أفرادها في الثورة المباركة حسب قدراته البدنية وسماته النفسية وإمكاناته العلمية. ونص هذه المسرحية ليس هو حكاية عائلة جزائرية حملت رسالة الثورة التحريرية، بقدر ما هو حكاية وطن يفتش عن دربه وسط ليل استعماري رهيب، وأسطورة شعب يحلم بشمس الحرية، وينشد نور الانعتاق.[11]

ج-مسرحية "الخالدون" من تأليف عبد الحليم رايس وإخراج مصطفى كاتب، وأنتجت عام 1960م، و"كانت خير تعبير عن هذا الجانب النضالي من ثورة نوفمبر المجيدة، فسلّطت الضوء على الأحداث التي كانت تعيشها الثورة المظفّرة، وصوّرت جانبا من واقع الجزائر الملتهبة". [12]

د-مسرحية "دم الأحرار" من تأليف عبد الحليم رايس، وإخراج مصطفى كاتب، وأنتجت سنة 1961م، وتجسّد القيم السامية للثورة الجزائرية والمبادئ النبيلة للثوار الأحرار، وكذا قناعتهم بالاستمرارية الثورية إلى تقرير المصير واسترجاع السيادة الوطنية.[13]

المسرحيات الإذاعية الثورية

ثمّة مسرحيات ثورية جزائرية كانت تبثّ عبر أثيريات الإذاعات العربية، خاصة عبر أمواج الإذاعتين: التونسية والمصرية. وقد أحدثت الثورة التحريرية وثبة نوعية في مسار المسرح الإذاعي الجزائري، إذ سجّل موضوع الثورة حضورا مكثّفا، استمرّ حضوره في المسرح الإذاعي الجزائري حتى بعد الاستقلال ومن ذلك: مسرحية "استراحة المهرجين" لنور الدين عبة التي صوّرت تعذيب الجزائريين واستنطاقهم من طرف الجلاّدين المحتلين الفرنسيين، ومسرحية "احمرار الفجر" لآسيا جبار التي اقتبسها وليد غارن وأخرجها مصطفى كاتب سنة 1969م. وتتعرّض إلى موضوع إسهام المرأة الجزائرية في الثورة التحريرية، وانتفاضتها ضدّ البطش الاستعماري.[14]

وإلى غاية يومنا هذا ووقتنا الراهن، ما زلنا نشاهد حينا ونقرأ أحيانا مسرحيات جزائرية ثورية تتصدّى إلى موضوعة "الثورة التحريرية"، تستلهم وقائعها، وتعتبر من مآثرها. وتنبري إلى محاولة إحياء أمجادها، على الرغم من أنّ ثورة بحجم الثورة الجزائرية تتحدّى الوصف والتصوير، ومهما حاول الأدباء الجزائريون يظلّ أدبهم دون مستوى هذه الثورة المباركة.

"أم الشهداء" مسرحية ثورية تربوية

تهدف مسرحية "أم الشهداء" لعز الدين جلاوجي إلى إحياء أمجاد الثورة الجزائرية من جهة، كما ترمي إلى ترسيخ روح المواطنة لدى الناشئة من جهة ثانية. لذا يمكن تصنيفها مسرحية ثورية تربوية بامتياز. ونتيجة لذلك اتّجهت نحو الواقعية والالتزام، كما اتّسمت

بالوضوح، وناءت عن الغموض. فهي قطعة مهرّبة من الواقعية، ومادة خام من صميم الحياة، سواء من حيث دينامية الممثلين في وظائفهم وردود أفعالهم، أو طبيعة المكان من منازل وساحات وجبال.

ويمكن عدّ المسرحية إسهاما في تفعيل الحركة الدرامية سعيا لإعداد الناشئة على الناشئة على التربية الصالحة والفطرة السليمة. وهي عبارة عن خمس لوحات ثورية، تعالج عينات من ثورة التحرير الجزائرية، ومدى التفاف الشعب الجزائري حولها ضدّ كلّ مظاهر الاحتلال من ظلم وذلّ وفقر وحرمان.

وتدور أحداث مسرحية "أم الشهداء" في فضاء متعدّد من منزل وجبل وساحة. فضربة البداية كانت من منزل لعائلة محرومة أثناء الثورة التحريرية، صادر المستمر أراضيها. فعزم أحد أبنائها أحمد على الانخراط في الثورة التحريرية، وتمكّن بفضل قوّة إيمانه من إقناع جميع أفراد عائلته بمبدئه الثوري العادل. فالتحق به أخوه الصادق، واشتغلت أمه وأخته عائشة بإعداد طعام الثوار وخياطة ملابسهم. كما لم تتأخّر فاطمة زوج أحمد عن الاستجابة لنداء الثورة، فعملت جنبا إلى جنب مع زوجها ليصبح البيت العائلي مأوى للثوار، ممّا جعله عرضة لمداهمات قوات الاحتلال. وهكذا صوّرت المسرحية في بعض مشاهدها معارك جيش التحرير في الجبال لتعلن في النهاية انتصار الثورة، واستشهاد أفراد هذه العائلة الثورية، بينما تبقى الأم أمّا للشهداء الذين لم يموتوا، بل هبّوا لطمأنتها ودعوتها إلى الثبات وعدم الحزن عليهم.

عتبة العنونة

يعدّ العنوان عتبة أولى من خلالها يمكن الولوج إلى فضاء النص الأدبي، كما أنّه علامة تحيل القارئ إلى المزيد القراءة والتلقي والتأويل. وهو حلقة أساس ضمن حلقات البناء النصي، يستدعي الغائب الكامن في الذاكرة النصية والذاكرة القارئة على حدّ سواء. وممّا يمكن أن يتداعى في عنوان "أم الشهداء":

أمّ: وإن كانت تحمل دلالات الأم الحقيقية لهؤلاء الأبطال الثوريين، فهي رمز للجزائر الولود للأبطال الذين يحمون حماها، الودود بالخيرات التي تنتجها أراضيها المعطاء.

الشهداء: أي القتلى في سبيل الله والوطن، وقد سميّ الشهيد شهيدا –حسب ابن الأنباري- لأنّ الله وملائكته شهود له بالجنّة.[15]

أمّا العنوان متكاملا "**أم الشهداء**"، فهو تركيب إضافي من مضاف ومضاف إليه، يلائم مضمون النص المسرحي الذي يتناول انتفاضة الجزائريين ضدّ المستعمر، وذودهم عن الدين

واللسان والوطن. ويمكن تأويل عبارة العنوان بكونه خبرا لمبتدأ محذوف تقديره "الجزائر أم الشهداء".

الشخصية الثورية بين الطفولة والبطولة

الواقع إنّ الثورة الجزائرية تتحدّى الوصف والتصوير، فمهما حاول الأدباء والمبدعون تصويرها، تظلّ إبداعاتُهم دون مستوى هذه الثورة المباركة. فكيف صوّر المسرح الجزائري الثورة الجزائرية؟ وهل اتّصفت الشخصية المسرحية الجزائرية بالثورية؟ وما هي المستويات المهيمنة هذه الشخصية الثورية من خلال مسرحية "أم الشهداء"؟

فليس مفهوم الشخصية Personnalité منحصرا في الوجود المادي أو الكيان الجسماني للإنسان –كما هو الحال عند اللغويين-، بل يتعدّى ذلك إلى إثبات الذات التي لها وجود حسي.. عند علماء النفس.[16]

ومنه يأتي مصطلح الشخصية بوصفها أداة Auxiliaire لتحديد مجمل العلامات والصفات التي تميّز فردا عن آخر.

أمّا الشخصية الدرامية Le personnage dramatique أو الشخصية بمفهومها الدرامي، فهي ذلك القناع الدرامي الذي يضعه الممثّل على وجهه أثناء أداء الدور المسند إليه.[17] والشخصية سواء كانت مسرحية أو روائية أو قصصية تنطوي على دلالات الكينونة Etre والملك Avoir والحالة Etat (بنوعيها الأولية Initial، والنهائية Final) إضافةً إلى الدور Le role أو الوظيفة La Fonction من منظور بروب ٍ V. Prop أو الفعل Action من منظور غريماس.

وقد حضرت الشخصية الثورية بقوة في المسرح الجزائري، وسجلت تواجدا مكثّفا ولافتا للانتباه من خلال نخبة من المسرحيين الفنانين منهم: عبد الحليم رايس في رائعته "أبناء القصبة"، وكاتب ياسين في نصه الجميل "الجثّة المطوّقة"، وأبو العيد دودو في مسرحيتيه "البشير" و"التراب"، وكذا عبد الله الركيبي في مسرحية "مصرع الطغاة" وغيرهم. لذا لم نتوان في وسم الشخصية المسرحية بـ"الشخصية الثورية".

ومن المستويات المهيمنة على هذه الشخصية الثورية من خلال مسرحية "أم الشهداء":

– **مستوى الدور** الذي تؤديه الشخصية، سار الدور الرئيس أو دور البطل أو دور البطولة في حركية مستقيمة من الأب إلى الابن أحمد إلى الحفيد. وهكذا توارثت الأجيال البطولة إلى حملت لواءها الطفولة. مثلما نجد في هذا الحوار:

الأب مخاطبا الأم: "عِشتُ ثمانين سنةً كاملة، فهل تعتقدين أنّي سأزيدُ مثلَها؟ لقد أكملتُ عمري، ولي الشرفُ أن أموتَ شهيداً دفاعاً عن كرامتي وأرضي" [18]

الابن أحمد متحديا:

"فلننفجرْ بدلَ النشيج نشيدا

يحيلُ فرحَنا عيدا

يبثّ فينا عزما جديدا

يزرع في ربوعنا عزّا أكيدا

فلننفجر فلننفجر فلننفجر.." [19]

– **مستوى الحالة** تراوحت حالة الشخصية المسرحية الثورية في مسرحية "أم الشهداء" بين الحالة الأولية (الطفولة) والحالة النهائية (البطولة). فإذا كان الأب سلّم مشعل البطولة إلى ابنه الطفل منصِّبا إيّاه بطلا، فإنّ الابن الذي يسقط شهيدا يورّث البطولة إلى الطفولة إلى الحفيد، وتستمرّ الثورة، وتستمرّ الطفولة والبطولة وهكذا دواليك. وفي هذا المضمار تقول الأم مخاطبةً الضابط الفرنسي: **"اطمئن لن ترى أعينكم هناء، تقتلون بالمئات نلد بالآلاف، تقتلون بالآلاف نلد بالملايين، سنكون غصّة في حلوقكم أيها القتلة.**

حين تقتلون الكبار سيكبر الصغار كالقضاء المقدّر."

وقد تأرجحت الشخصية الثورية في مسرحية "أم الشهداء" بين الواقعية والرمزية:

– **أحمد:** هو البطل شخصية محورية داخل النص المسرحي، إقناعية حجاجية، أقنع كلّ أفراد عائلته بالانخراط في الثورة. إذ يقول:

" ماذا أبقى لنا هؤلاء اللصوص؟ سرقوا منّا الحرية...العزّة... الأرواح....وأخيرا ها هم ينزعون منّا أراضي البور... ماذا بقي لنا؟ فهل نسكت؟[20]

– **الأب:** على الرغم من شيخوخته، وقف في وجه المستدمر، وهو يرمز إلى التاريخ الجزائري المجيد. بارك الثورة إلى آخر رمق.

يقول مخاطبا أحمد: "امضِ يا ولدي، يباركك ربّ السماء

لك دعواتي صبح مساء".

– **الأم:** تحيل إلى أرض الجزائر الطاهرة، تتنازعها عاطفتي: الخوف على مصير أبنائها، وحبّ الوطن بالذود عنه.

تقول لابنها أحمد: "أرواحكم يا ولدي العزيز خير عندي من كلّ شيء.
يجيبها: رخيصة أمّاه هذه الأرواح.
ثمّ تردف مقتنعةً: امضِ يا كبدي، قد نذرتك للوطن.[21]

وهكذا تتعرّض مسرحية "أم الشهداء" لعز الدين جلاوجي لأحداث الثورة التحريرية الجزائرية مركّزة على إسهام مختلف فئات المجتمع الجزائري فيها، شبابا وشيابا، رجلا ونساء، أطفالا وصبيان. وإذا بطل المسرحية أحمد يسقط شهيدا في ميدان الشرف، فيدفع بذلك ضريبة الدم. فإنّ ابنه الصغير يبقى استمرارا لثورة البناء والتشييد، يدفع ضريبة العرق. ممّا يبرز موقع الطفولة الجزائرية من البطولة الثورية. فالطفل بوصفه رهان المستقبل وصانع الثورة، يعدّ مركز تهديد للاستعمار، وليس ضحية من ضحاياه.

خاتمة

وممّا تقدّم نخلص إلى أنّ الثورة الجزائرية سجلت حضورا قويا في المسرح الجزائري. وقد تراوح هذا الحضور بين العمق والسطحية. وقد ظلّ المسرح الثوري الجزائري ملتزما معبّرا عن واقع الشعب الجزائري وصراعه ضدّ المستعمر. فهو مسرح شعبي موجّه لكلّ فئات المجتمع، وبالدرجة الأولى للأطفال، قصد تنشئتهم على الاعتزاز بتاريخهم المجيد، والمحافظة على مكتسبات وطنهم المفدى.

ثمّ إنّ مشاهد مسرحية "أم الشهداء" تعدّ صور حية من رحم الثورة الجزائرية المظفّرة. فهي مسرحية ثورية ذات شخصيات من كلّ فئات المجتمع الجزائري، نالت فيها نصيب البطولة الشيخوخة، فالكهولة، فالشباب، ثمّ الطفولة.

الاحالات:

1 -عز الدين جلاوجي، أحلام الغول الكبير، دار المنتهى، الجزائر، 2015.
2 -عز الدين جلاوجي، أم الشهداء، دار هومة، الجزائر.
3 -كاتب ياسين: الجثة المطوقة والأجداد يزدادون ضراوة(مسرحيتان)، تر: سليمان العيسي، ملكة أبيض،ط 2، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت-لبنان، نوفمبر 1979.
4 -محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، ش و ط ن ت، الجزائر، 1983، ص .278 4
5 -ينظر محمد صالح الجابري، الثورة الجزائرية من خلال بعض المسرحيات التي نشرت بتونس إبان الثورة، مجلة الثقافة، الجزائر، عدد 96 ، نوفمبر- ديسمبر 1986، ص 17.
6 -ينظر أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري، ط3، الدار التونسية للنشر 1985، ص ص 63.64.

7 -محمد الصالح الجابري: الثورة الجزائرية من خلال بعض المسرحيات التي نشرت بتونس إبان الثورة، مجلة الثقافة، العدد96 ،ص 21.

8 -صالح خرفي، حنين إلى الجبل، مجلة الثقافة، الجزائر، عدد 23، أكتوبر- نوفمبر 1974، ص 121-145.

9 -عبد الله الركيبي: مصرع الطغاة، دار النشر بوسلامة، تونس.

10 -عبد الحليم رايس، أبناء القصبة، دم الأحرار، منشورات المعهد الوطني العالي للفنون الدرامية، العدد 2، الجزائر، 2000.

11 -أحسن تليلاني، المقاومة الوطنية في المسرح الجزائري، ص 109.

12 -أحمد بيوض، المسرح الجزائري 1926-1989، ص 86.

13-نور الدين عمرون، المسار المسرحي الجزائري إلى سنة 2000م، شركة باتنيت، الجزائر، 2006، ص 110.

14 -المرجع نفسه، ص 155.

15 -ابن منظور، لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، مج 12، ص 12.

16-أحمد محمد عبد الخالق، الأبعاد الاساسية للشخصية ، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص 39.

17 -سامية اسعد، الشخصية المسرحية، مجلة عالم الفكر ، العدد الرابع ، المجلد(18) يناير مارس، 1988، ص 117.

18 -عز الدين جلاوجي، المجموعة المسرحية غير الكاملة، ص 228.

19 -المصدر نفسه، ص 227.

20 -المصدر نفسه، ص 226.

21 -المصدر نفسه، ص 234.